العالم الإسلامي حضاريًا
تراجع أم تقدّم؟

(الصفحات ٧ – ١٠)

من نافلة القول أن الحضارة تعني تقدّم المجتمع في المجالات المعنوية والماديّة. مؤشر التقدم في الدائرة المعنوية يتجه نحو ضبط الغرائز وتغليب العقل والشعور واحترام كرامة الإنسان وعزّته، ولعلّ كل ما عداهما من مظاهر التقدم المعنوي يعود إلى هذين المحورين والتقدم في المجال المادي يتجه إلى استثمار مواهب الطبيعة وتسخير قوانينها بالاستفادة من العقل والتجربة.

والتقدم في كلا المجالين هو في الفهم الإسلامي: ممارسة دور «الاستخلاف» على ظهر الأرض. ولابد من أن يتزامن التقدم في المجالين، وإلاّ كانت ممارسة دور الاستخلاف ناقصة.

ولنلق نظرة على تاريخنا الإسلامي وواقعنا الراهن، ولنتساءل: هل العالم الإسلامي طوى ويطوي مسيرة تكاملية أم نكوصيّة؟

ثمة نظرة عند بعض المسلمين ترى في القرن الأول الهجري المثال الأعلى لواقع المسلمين، ولابدّ أن ترى فيما بعده تراجعًا أو ترى أن كل العصور التالية لا يمكن أن تلحق بمسيرة ذلك القرن.

وهناك فريق آخر من المسلمين ينحو نفس ذلك المنحى ولكن بفكرة مختلفة تقوم على أن أوضاع العالم في تدهور مستمر حتى يصل الظلم والجور إلى أقصاه ليمهّد السبيل أمام ظهور المهدي الموعود المنتظر (ع).

تجمع الفريقين فكرة واحدة هي النكوصية في المسيرة التاريخية.

بنظرة نحاول أن تكون واقعيّة وبدون تحكيم نظرة مسبقة نقول:

لقد ابتُلي العالم الإسلامي بطغيان الجهاز الحاكم وفساده في معظم مقاطع تاريخه، ولذلك فإن هذا التاريخ مفعم بصور البطش والإرهاب ومصادرة الأموال، وإزهاق الأرواح، والاستهانة بالكرامات، وممارسة أنواع الفساد داخل قصور الحكام وحاشيتهم.. ومن يلق نظرة على هذه المسيرة الدموية الفاسدة لأجهزة الحكم، يستطع أن يفهم سبب سقوط العالم الإسلامي بيد المغول وسبب سقوط الاندلس ، بل ربّما يستغرب ويتساءل: كيف استطاع العالم الإسلامي أن يحافظ، تحت وطأة الأوضاع الحاكمة، على هويته واستمرارية بقائه؟!

وليس الجواب بعسير لو لاحظ السائل:

١ ـ ما في الإسلام من قوة عظيمة قادرة على أن تحافظ على هويّة الفرد والمجتمع، وتتجلّى هذه القوّة في مفاهيم الإسلام وعباداته وشدّ الإنسان بالغيب وبالمطلق والآخرة.

٢- ما في الإسلام من ضخّ مستمر للعزّة والكرامة وإباء الضيم، تأبى على المسلم أن يذلّ ويستكين، ومن هنا كان تاريخ المسلمين مليئًا بالثورات والاعتراضات الحادّة بوجه الجهاز الحاكم.

٣- ما نهض به الرساليون على مرّ التاريخ من دور عملي وعلمي وإعلامي للمحافظة على الصورة الصحيحة للإسلام، ولتقديم النموذج السلوكي والسياسي للزعامة الإسلامية الصحيحة.

نحن اليوم في عالم يكاد أن يقف على بوابة تحوّل كبير.

لم تعد «الإرادات السلطانية» قادرة على أن تمارس ما مارسه أسلافها، بل أصبحت شعارات الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل هي الشائعة وهي التي يرفعها حتى غير المؤمنين بها لتسويق بضاعتهم.

هناك أكثر من منظمة دولية أقيمت لتدافع عن حقّ الإنسان وحقّ الشعوب، وهنـاك أكثر من لائحة اتخذت صفة الإلزام لتدافع عن حقوق الأسرة والمرأة والطفل، وثمة أكثـر من محكمة دولية شكلت بهدف محاكمة المجرمين الدوليين والقتلة.

كما أن هناك منظمات دولية تنهض بمهمات مكافحة الأمية والجوع والفقر والجفـاف والتصحّر وتلوّث البيئة.

وفي المجال العلمي حدث خلال نصف القرن الماضي تطور هائل في شبكات الاتصال حوّل العالم إلى قرية كبيرة. ورافق ذلك تقدم في حقول استثمار الطاقة الذرية في تطـوير الطب والإنتاج، كما اتسعت المعالجـات الجينيـة واسـتخدام الخلايـا الأساسـية للقيـام بمنجزات هائلة مفيدة للبشرية.

كل هذه الظواهر الإيجابية على الساحة العالمية تنبئ في توجهها العام بـأن البـشرية تطوي مراحل تكاملها ورشدها ونموّها، والعالم الإسلامي جزء مـن الـساحة البـشرية، يحظى بما تنعم به الساحة من إيجابيات.

غير أن العالم الإسلامي يعاني من إرث تاريخي ثقيـل يـسيء إلى هـذه الإيجابيـات ويكاد يصادرها.

من ذلك إرث الحروب الـصليبية وشـعور الاسـتعلاء الأوروبي. هـذا الإرث يحـول غالبًا دون إقامة علاقات تعاون وتفاهم بين الشمال والجنوب. بل يدفع بهذه العلاقة إلى حالة استيلاء وإذلال وتوتّر وانهدام جسور الثقة.

ومن ذلك إرث الهزيمة النفسية للمسلمين، بعد سقوط العـالم الإسـلامي أمـام الغـارة الأوروبية. هذه الهزيمة لا تزال آثارها واضـحة هنـا وهنـاك متمثلـة في حالـة الكـسل والخمول وعدم الثقة بالنفس وضعف الهمّة والميل إلى البطالة والهذر والشعور بالذلّ، وما يكتنف هذه الحالة عادة من بيع للضمائر والأوطان والمقدسات وخيانة المبادئ والـمُثُل واستفحال الغرائز والشهوات الهابطة.

هذا التحدي الخارجي والداخلي يجعل العالم الإسلامي في ظروف لا تتناسب مع تطور المرحلة الراهنة من المسيرة العالمية، وإن كان يتمتع بكثير من معطياتها.

فرص مواجهة هذه التحديات متوفّرة على أثر صحوة العالم الإسلامي، وثورة الاتصالات. الصحوة التي نقصدها هي هذه العودة النسبية إلى الذات والشعور النسبي بالعزّة والتمسك الجزئي بالهوية، وهو ما أدّى إلى حركة علميّة مشهودة في مجالات التقنية، وحركة سياسية للتحرر والاستقلال، وحركة فكرية لإحياء التراث والانطلاق منه نحو استئناف مسيرة الحضارة الإسلامية.

ثم إن ثورة الاتصال وفرت فرصة إيصال صوت الإسلام والمسلمين إلى أسماع العالم، ولم تبق ثمة حواجز وسدود أمام هذا الصوت، ووفرت فرصة التعارف بين المسلمين وتبادل التجارب بشأن قضاياهم باستمرار.

لو أنّ العالم الإسلامي استطاع أن يستثمر الفرص ويتغلّب على تحدياته فإنه يستطيع، في ظروف التقدم العالمي الهائل وبفضل عناصر الحراك الحضاري في ثقافته، أن يتطور حضاريًا بسرعة فائقة، وبذلك لا يتخلص هو فقط مما يحيط به من مظاهر سلبية بل يستطيع أن يقدّم للعالم مشروعًا حضاريًا يجمع الجانبين المعنوي والمادي ويلبّي عطش الإنسانية وأشواقها الى غدٍ أفضل.

العالم الإسلامي مؤهّل اليوم لأن يقيم جسور حوار مع الغرب تحقيقًا لهدف «التعارف» أو التبادل المعرفي، رغم كل المعوقات التي يخلقها أعداء الإنسانية وعلى رأسها الصهيونية والماسونية والاستكبار العالمي، ولكن بشرط أن يرتفع في خطابه إلى مستوى متطلبات العصر، وأن يكسب احترام الآخرين وذلك بأن يحترم نفسه أولاً.

إنه يقف على مشارف تقدّم كبير يمكن أن يحققه لنفسه وللبشرية والله المستعان.

التحرير